الادب العربي والادب الغربي

على ذكر رواية خسرو وشيرين

لا ريب أن الأدب العربي مقصر دون الأدب الغربي في كثير من النواحي ، برغم ماله من الميزات الخاصة وبرغم عراقته وحداثة الأدب الغربي بالنسبة اليه . فقد سار الأدب الغربي بخطى واسعة وتطور في عصوره . على حين سار الأدب العربي دائما على نمط يكاد يكون واحداً . وكما بعد العصر العباسي الزاهي كبوة لم يقل منها الا اليوم . وكان من عهدها الى العصر الحديث في حكم العدم اذا قيس بآداب الأمم الرفيعة .

ولا ريب أن الأدب العربي يكسب كثيراً — وقد كسب بالفعل كثيرا — بلقاحه بالأدب الغربي ، وهذا اللقاح يتأتى عن طرق ثلاثة : الأول اطلاع أدباء العربية على الأدب الغربي . فان لذلك أكبر الاثر في نفوسهم وفي كتاباتهم وإن لم يشعروا ولم يتعمدوا إدخال ما قرأوا فيما يكتبون . والثاني ترجمة الآثار الغربية المشهورة من نثر وشعر الى لغة الضاد . فان ذلك يؤثر في أبناء العربية الذين لم يطلعوا على آداب غيرها تأثيراً يكاد يدنيهم ممن اطلعوا عليها . والثالث إدخال الاشكال والمواضيع الشعرية الغربية في الادب العربي اذا كانت غير موجودة فيه . فان ذلك يزيد اللغة ثروة وقوة ، ويقدر الادب العربي على مجاراة آداب الغرب

والشعر العربي خاصة خلو من كثير من الاشكال والمواضيع التي يتناولها الشعر الغربي كالدرامة والملحمة والشعر المرسل والقافية المنوعة والاوزان المتداخلة في القصيدة الواحدة . فالشعر العربي فضلا عن كون مواضيعه محدودة قوامه الوحدة في الوزن والقافية ، والاحكام في القواعد ، والصنعة والرصانة في الأسلوب ، وعلى المعنى أن يخضع لكل هذا فلا يخرج الا مصقولا في قالبه . بينما الشعر الغربي أكثر مرونة وأقل قواعد وأسهل في يد الناظم وأقدر على التحول والتنوع وزنا وقافية اتباعا لمعاني القصيدة المتتابعة ، ومن ثم استطاع الشاعر الغربي أن يودع شعره من دقيق المعاني وعميق الأفكار وخاصها وجزئيها مايشق على الشاعر العربي الذي لاطاقة له بغير ذكر العام والكلي ، فكلما جاد الشعر العربي راع اسلوبه وأحكمت ديباجته ورافت موسيقاه ، وكلما جاد الشعر الأوربي دقت معانيه ولطفت اخيلته وتجسم وصفه وتصويره وعبر عن الخوالج النفسية البعيدة الغور . وبالجملة كانت نتيجة الوحدة في العروض والقافية في الشعر العربي أن كان شعر أساريب ، ونتيجة التنوع والمرونة في عروض الشعر الغربي وقافيته أن كان شعر معنى

واذا كان شعراء العربية الأقدمون قد قنعوا بذلك الضرب المقيد الموحد من الشعر وأدوا به معانيهم وأغراضهم العامة ، فلن يقنع به عصرنا ، هذا اذا كنا نريد للشعر العربي مجاراة الشعر الأوربي ، ونريد أن يؤدي من لطيف الأوصاف للمشاهد الطبيعية والحالات النفسية مايؤديه ذلك الشعر ، ولا بد لنا — كما اقتبسنا من الغرب القصة القصيرة والخطابة والرواية التمثيلية والمقالة في عالم النثر — أن نقتبس في عالم الشعر الأوضاع والأشكال التي توسع أفق شعرنا العربي وتزيده قوة وخصبا

والواقع ان القافية الموحدة التي تنتظم القصيدة من أولها الى آخرها غير معروفة في الشعر الغربي ، وقد قال ملتون في مقدمته لملحمته المشهورة « الفردوس المفقود » إنه عول على نظمها شعرا مرسلا وعلى نبذ القافية نبذا تاما لأنها أثر من آثار الهمجية ، وكثيرا

وقد رنقت شمس الاصيل ونفضت
على الافق الغربي ورسا مزعزعا
ولاحظت النوار وهي مريضة
وقد وضعت خداً على الارض أضرعا
وقد ضربت في خضرة الروض صفرة
من الشمس فاخضر اخضراراً مشعشعا
وأذكى نسيم الروض ريعان ظله
وغنى مغنى الطير فيه فدجما
وغرد ربعي الذباب خلاله
كما حشحش النشوان صنجا مشرعا

لئن حفل شعر أبي تمام والبحتري بالكنايات الظريفة والاستعارات الطريفة ، فان الرومي في الشعر التصويري الملون نسيج وحده

حلب — كمال حريري

ماعاقت الشعراء عن تسجيل سامى المعانى ، وبرغم مغالاة ملتون فى قوله هذا — إذ للقافية روعتها ولزومها فى كثير من ضروب الشعر — فلا شك فى أن القافية كثيرا ما تقف عقبة فى سبيل نظم دقيق المعانى وجليلها

لابد من رياضة الوزن العربى والقافية العربية على المرونة والسهولة والتنوع فى القصيدة الواحدة تبعا للمعانى ، كى يساعدا الناظم البارع على بيان اغراضه ، فلا يعتمد الاعتماد كله على المعانى والتشبيهات ونحوها ، بل يعتمد أيضا على جرس الالفاظ وموسيقى الوزن ووقع القوافى وتجاوبها واختلافها لابراز أوصافه وإحياء صورته التى يريد فى خلد القارىء ، فقد برع الشعر الغربى فى هذا الضرب من الملاءمة بين المعنى واللفظ والوزن ولاسيما فى اشعار الوصف فبذ بتصويره ريشات المصورين فى كثير من الأحيان

لا بد من التخلى عن بعض القيود والقواعد وإدخال بعض السهولة والحرية واقتباس ما يمكن اقتباسه من الأوضاع والأشكال الشعرية الغربية ، على اننا يجب ان نذكر أولا أن ماسنقتبسه لن يلغى القافية الموحدة والوزن الموحد من العربية إلغاء ، بل تظل هذه الطريقة العربية الخالصة قائمة ، لها ميزاتها من الرصانة والفخامة ، ولها مناسباتها التى تستعمل فيها فتؤدى غرضها أحسن الأداء ، لن نهجر طريقتنا الى طريقة غيرنا بل نأخذ مما عند غيرنا ما يزيد لغتنا وشعرنا سعة وثروة ، ويجب أن نذكر ثانيا ان الناظم الغربى انما يستخدم تلك الحرية والمرونة فى شعره ليؤدى بها اغراضا خاصة : تجسيم وصف ، أو تمثيل حركة ، أو تقليد صوت ، أو إسلاس قصص ، فيجب ألا نهجر القافية والوزن الموحدين إلا أن يؤدى تنويع الوزن والقافية مثل تلك الأغراض ، وإلا كان الأمر مجرد تسهيل للنظم يغض من قيمة الشعر الفنية ويورث الناظم الكسل وقلة التعب فى معالجة القصيد

واكبر اعتراض يقام امام ادخال هذه الاساليب الشعرية الغربية نبوها على السمع الذى اعتاد الوحدة فى الوزن والقافية العربيين . وهو اعتراض وجيه غاية الوجاهة : فان اقتباس تلك الاساليب إن أدى الى فساد موسيقى الشعر العربى التى هى قوامه كان وبالا وكان علينا ان نقلع عنه مهما كان له من فوائد ، ولكن هذه العقبة يمكن تذليلها بوسيلتين :

الأولى التدرج فى التحرر من قيود الوزن والقافية تحررا يسير بطيئا مع الزمن ولا يفاجىء الآذان كبر مفاجأة ، فان التطور دون الطفرة جدير بتعويد الأذن على اختلافات العروض والقوافى فى القصيدة الواحدة ، حتى تستطيب تلك الاختلافات وتلتذها وتصير لها فيها متعة كالمتعة التى نجدها فى النظم الموحد ، وقدما اخترعت الموشحات والابيات المختلف شطراها طولا فكانت خرقا فى الطريقة السائدة وكانت بلاريب نابية على الاسماع فى اول الأمر ، ولكنها بمرور الزمن صارت مألوفة ولم يعد أحد من كبار الشعراء يتحرج من اللجوء إليها فى بعض اغراضه .

والوسيلة الثانية هى ان يتصدى لادخال هذه الاساليب فى شعرنا العربى كبار الشعراء الذين عالجوا القريض سنين طوالا ، ومارسوا اللغة واستوعبوا ثروتها واستبطنوا اسرارها وحذقوا عروضها ، فهم وحدهم بخبرتهم ودربتهم وتمكنهم قادرون على أن يدخلوا فى اللغة ما يلائمها وينبذوا ماعداه ، ويصقلوا مايدخلون بصقا لها حتى يصير جزءا منها ويثبت فيها وينمو ويثمر ، أما أن يتصدى لذلك الناشئون المتحمسون للتجديد على غير بصيرة فلن يأتوا إلا بكل غث لا يؤدى اغراض الشعر الغربى ولا يبقى على جمال الشعر العربى ولا يكتب له بقاء .

والقافية أشد من الوزن قبولا للتلقيح بالاساليب الغربية ، والشعر المرسل خاصة يكون ذا مستقبل باهر فى العربية اذا عالجته الايدى القديرة ، وقد مارسه الاستاذ فريد أبو حديد غير مرة ونجح فيه نجاحا غير قليل ، ونشر فى الرسالة ترجمة لفقرات من «عطيل» امتازت بالسلاسة ولم ينقص من قدرها فى نظرى سوى أن الأستاذ اختار لها بحر الرمل ، وليس هذا ولا الخفيف المنظومة فيه رواية خسرو وشيرين بألين البحور لبدء معالجة الشعر المرسل . بل اكثر البحور العربية استعدادا لذلك البحر الطويل الذى هو بطوله وفخامة موسيقاه وانتادها أقدر على الاستغناء عن القافية وأحق بأن يترجم اليه الشعر المرسل الغربى المعروف «بالبلانك فيرس» وأن يحل عندنا محل ذلك الضرب الذى يختص عند الغربيين بشعر الدرامات والملاحم ، ولا ريب أن ترجمة روايات شكسبير وأمثالها اليه أولى من ترجمتها نثرا .

ولقد كان شوقى فى أواخر أيامه أقدر الناس على ولوج هذه الأبواب لو أراد ، لولا شديد اعتداده بالوزن والقافية الموحدين ، فانه كان قد مارس قرض الشعر نحو نصف قرن حتى حذق